

زحزحة إشكالية القرآن

2017-10-21 آية الله السيد مرتضى الشيرازي

8- زحزحة إشكالية القرآن

(ويقصد بالزحزحة: زحزحة الإشكالية الإسلامية الخاصة بالقرآن، لكن شرط أن تترافق مع "زحزحة" في الفكرين المسيحي واليهودي، فعندئذ يتم دمج المثال القرآني داخل بحث مشترك حول المكانة اللغوية والانثروبولوجية للخطاب الديني حول الوحي، لذلك على الدراسات العلمية المكرسة لخطاب الوحي في الغرب أن لا تستبعد القرآن من مساحتها، بل عليها بتطبيق الدراسة التاريخية على القرآن مثلما هو مطبق على الوحيين اليهودي والمسيحي). (1)

المناقشة

ان هذا الكلام عن زحزحة القرآن ليس الا نتيجة لما تبناه اركون في النص الذي مضى، وإذا قمنا بعملية تفكيك لهذا النص، نجد أنه يصرح أو يتضمن أو يستلزم الآراء والدلالات التالية:

أ: هناك إشكالية خاصة بالقرآن، يجب زحزحتها وتغييرها!

ب: الإشكالية الخاصة بالقرآن هي نفس الإشكالية الخاصة بالتوراة والإنجيل أو هي قريبة من هذا، وهذا يعني أن القرآن محرّف كالتوراة والإنجيل، أو أنه صياغة بشرية كالتوراة والإنجيل الموجودة بأيدينا، (2) ولذا صرح لاحقاً بـ(تطبيق الدراسة التاريخية على القرآن مثلما هو مطبق على الوحيين اليهودي والمسيحي) و(دمج المثال القرآني داخل بحث مشترك...).

ج: إن الخطاب الديني حول الوحي (ويشمل تعبير الخطاب الديني نصوص القرآن نفسه حول الوحي وكلمات الرسول حول الوحي) (3) لا يختلف عن غيره من النصوص في ضرورة خضوعه للبحوث اللغوية والانثروبولوجية.

وهذا يعني إخضاع النص الإلهي، لمناهج بشرية مخترعة، هم يعترفون بأنها نسبية وأنها تاريخية، وأنها قد تتغير من زمن لآخر، وحسب تطور العلم واكتشافه نقص أو خطأ المناهج أو الآليات السابقة!

د: خاصة إذا لاحظنا أن علم الانثروبولوجيا يعني دراسة أو علم الإنسان، ويتضمن (مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمعات البدائية ومعالم ثقافات المجتمعات المتقدمة) ويهتم الانثروبولوجيا بـ(ملاحظة مساكنهم وملابسهم وأدواتهم ونظام العائلة والقرابة والنظام الاقتصادي والمعتقدات والطقوس الدينية واللغة المستخدمة والسحر ووسائل الضبط من سنن اجتماعية وتقاليد)، ولا يخفى أن هذه (الملاحظة) هي بدورها خاضعة للتاريخية وللوسط الثقافي والاجتماعي الذي يعيش فيه الإنسان، فلا يمكن - حسب هذا المنطق - أن تكون موضوعية وأن تكون مرآة للواقع كما هو وبما هو، بل إنها ستكون مرآة للمفسر نفسه وثقافته، أو تكون مزيجاً من الأمرين (كما ذهب إليه بعض المدارس الهرمينوطيقية) وعلى أية حال لا تحظى هذه الملاحظة بـ(المطابقة للواقع مائة بالمائة) ولا تسلم عن المؤثرات والمشوشات والملونات النفسية والفكرية التي تحيط بهذا الملاحظ المفسر إحاطة السوار بالمعصم بل: المتلاحمة مع كيانه والداخله في نسيج ذاته.

وكذلك الحال في مختلف بحوث ومسائل (علم الإنسان أو دراسة الإنسان) إذ ما ذكرناه عن (الملاحظة) هو بنفسه مما ينطبق على (الدراسة) و(العلم) إذ أليست الدراسة "تاريخية" وأليس العلم "تاريخياً"؟

وإذا لاحظنا أن من فروع هذا العلم هو الانثروبولوجيا البنيوية، والتي جاء عنها: (وما الاختلاف بين الثقافات إلا اختلافاً في المضمون مرده إلى مؤثرات خارجية) و(فبالاستناد إلى دراسة هذه الأنساق(4) نستطيع أن نكشف عما يحدد العقل البشري في كل الأزمنة ومعرفة كل شيء من الإنسان والمجتمع). (5)

والجدير ذكره: إن هذه (الأنساق) ليست هي بالضرورة التي تحدد العقل البشري ولا هي التي تكشف عنه دائماً، بل كثيراً ما يحدث العكس تماماً، حيث يقوم العقل البشري بخلق الأنساق (أي مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية) الجديدة، أو تحويلها أو تطويرها، أو نسفها تماماً، وما أكثر

الثورات الفكرية التي أطاحت بالعديد أو بالكثير من الأنساق الاجتماعية والثقافية. كما أن (كاشفيتها عما يحدد العقل البشري) قد تكون ناقصة أو مشوهة أو خاطئة تماماً. (6)

ثم إن الدقة العلمية تقتضي أن يكون التعبير أكثر حذراً ليقول (نستطيع أن نكشف "بعض" ما يحدد العقل البشري... ومعرفة "بعض" الأشياء عن الإنسان والمجتمع).

هـ: والحاصل من كلامه كله: أن (النص القرآني) يحتاج إلى زحزحة، وهنا يحق لنا أن نتساءل: ومن الذي يقوم بعملية الزحزحة؟ وألا يخضع هو بدوره للتاريخية؟ ولتأثيرات الوسط الثقافي - الاجتماعي الذي يعيش فيه؟ وأية حجية له بعد ذلك؟ وما وجه أرجحيته على النص الخاضع هو بدوره فرضاً لتأثيرات الوسط الذي ولد فيه؟ ثم ما وجه أرجحيته على أية (زحزحة) ماضوية أو مستقبلية!

وهل ذلك إلا ترجيح بلا مرجح؟ أو غرور وتبجح؟ أو دعوى بلا دليل... وحسب المصطلح الأصولي فإنها عندئذٍ جميعاً (ظنون) و(إن الظن لا يغني من الحق شيئاً).

* من الفصل الرابع لـ كتاب (نقد الهرمينوطيقا ونسبية الحقيقة والمعرفة)

<http://m-alshirazi.com>

<http://annabaa.org/arabic/author/10>

.....

- (1) الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي: ص 28 تحت اسم أركون، محمد.
- (2) أو لعله يقصد أيضاً: أنه حتى لو كان نصاً إلهياً شكلاً ومضموناً، محتوى ولفظاً، فإنه يحتاج إلى الزحزحة أيضاً، لأنه مهما كان فهو نص تاريخي!! ومن يقوم بالزحزحة؟ إنه البشر الناقص الخاضع لسيطرة (المرحلة التاريخية) التي يعيشها!
- (3) بل لعله ظاهر كلامه أن (الخطاب الديني حول الوحي) يراد به بالذات الخطاب والنص القرآني حول الوحي ولذا يصرح (على الدراسات العلمية المكرسة لخطاب الوحي في الغرب أن لا تستبعد القرآن من ساحتها) و(عليها بتطبيق الدراسة التاريخية على القرآن مثلما هو مطبق على الوحيين

اليهودي والمسيحي).

(4) (الأنساق): جميع مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية تعتبر كأنساق من العلاقات للتواصل.

(5) الموسوعة الميسرة: ص 314 مادة انثروبولوجيا.

(6) بل ما أكثر ما تكون المظاهر الاجتماعية أو الثقافية، غطاء كاذباً، يخدع غير اللبيب بل واللبيب

أحياناً، ليسوقه بعيداً عن واقع ما يحدد العقل البشري.